الدكتور وليم ستكل ؛ أقنعة الحب

نقله الى العربية وشرحه الاستاذ أحمد سامح الخالدي ونشرته مكتبة فلسطين العلمية

طبع بمطبعة بيت المقدس في القدس عام ١٩٦٦ ، وعدد صفحاته ١٦٤ من القطع الوسط

ليس في الكتب النفسية كتاب هو أمتع ولا أنفع من الكتب المشتملة على وصف الحياة الباطنية . تقرأ الكتاب في ليلة واحدة او ليلتين فيخيل اليك انك في عالم غير هذا العالم ، تطل منه على العواطف المكبوتة والغرائز المكنونة والأحلام المرموقة . ثم إنك اذا اطلعت على ذلك كله أدركت ان كثيراً من أفعالنا وانفعلاتنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وارادانا إنما يرجع الى ميل مكبوت أو نزعة مخنوقة دفناها في القلب ثم حلنا بينها وبين العالم الخارجي بحجاب التربية وقيود المجتمع . ولكن هذه الرغبات المدفونة وراء حجاب الشعور لا تموت ، بل تتجمع بعضها فوق بعض ، ثم تمزّق أكفانها وتحاول الظهور على مسرح الشعور بمظهر جديد . وقد تطالب بحقها أكثر من ذلك فتثور على الحياة الواعية ، ويبتدئ اذ ذاك نزاع شديد بينهما قد يؤدي في النهاية الى الجنون .

وفي الكتاب الذي بين أيدينا وصف للأقنعة التي نغطي بها نزعاتنا ورغائبنا المدفونة كقناع العمى الارادي وقناع الحساسية الشديدة ، وقناع الباعث الجنسي ، وقناع التردد ، وقناع الخوف من طبيب الأسنان ، وارادة المرض والقبح ، وضعف الارادة واختيار المهنة وغيرها سلك المؤلف في تعليلها طريقة أستاذه (فرويد) الذي أرجع كل شيء الى الغريزة الجنسية .

فمن الأمثلة الدالة على العمى الارادي ضيق المجال البصري عند بعضهم وتعاميهم الارادي عن رؤية الأشياء ، وانصرافهم الى التحديق في فكرة محدودة راسخة ، ورغبة بعضهم الآخر في كل شيء حتى يشبهوا دوامة الماء التي لا تعرف الوقوف . فهم ابداً في شغل شاغل يخشون ان تمر بهم ساعة فراغ ، ويشغلون انفسهم ليمنعوها من التفكير فيما لا يريدون أن يفكروا فيه .

ومن الأمثلة الدالة على الحساسية الشديدة حال الذين تتوتر أعصابهم فيتألمون من أقل ضجة ولا ينامون الا اذا سكن كل شيء وقد يفرّون الى القرى طلباً للراحة فلا تعرف الراحة سبيلاً الى قلوبهم ، لأن آلامهم ناشئة عن سبب داخلي ، يخشون تمتمة صدورهم ويفرقون من سماع أصوات غريبة تدوي في آذانهم ، « بل من رنين او طنين او دق مستديم يشبه دق الأجراس » (ص — ٤٢) .

ومن الأمثلة الدالة على اقنعة الباعث الجنسي وقوع بعض الناس في امراض نعجز عن تعليل اسبابها ، وتكون امراضهم هذه بمثابة قناع يغطون به حبهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأقنعة الحب ثلاثة : الحياء ، والشوق ، والاحتقار . اما الحياء فهو اعتراف بالغريزة الجنسية واخفاء لباعث الحب . واما الشوق فهو دليل على الخوف من الذات . وله أشكال مختلفة ترجع جميعها الى اصل نفسي يحوله المريض الى إحساس . فالسيدة التعسة بحبها تنكر أسباب شقائها فتحولها الى ضيق في الصدر ، وأوجاع في القلب . والسيدة التي تكره زوجها وترغب في موته من نوبة صرع قد تصاب هي نفسها بخوف مرضي يشبه هذه النوبة . ومثل هذا كثير فهناك فتيات كن يعشقن رؤساءهن ، وطالبات كن يعشقن اساتذتهن ، ونساء كن يحببن اصدقاء رجالهن ؛ أخفين اسرارهن حتى عن أنفسهن فأصبن بآلام القلب وضيق التنفس العصبي او الربو او ببعض الاضطرابات العضوية الأخرى . واما الاحتقار فهو رغبة نعبر عنها تعبيراً سلبياً فكم من أوجاع في المعدة ليست سوى اضطرابات عصبية يمكن ارجاعها الى احتقار لا شعوري . ان بعض الفتيات اللواتي يمتنعن فجأة عن أكل اللحوم يحتقرن كل ما يمت الى الجسد بصلة ، فينقلب احتقارهن للجسد الى احتقار للغذاء . واكثر النباتيين المتعصبين انما يرجع تعصبهم الى مثل ذلك . وقد وصف المؤلف كثيراً من أقنعة اله الحب كالأرق ، وجنون السرقة ، وجنون الحريق وغيرها . قال انه عرف طبيباً عنينا أسس جمعية لمقاومة الأمراض التناسلية ، واستاذاً فاضلاً كان قد اخذ على نفسه ان يفتش جميع المخازن التي تبيع رسوماً مخلة بالآداب جاءه يوماً وهو يرتعش من شدة القلق لسلوكه سلوكاً شائناً مع إحدى الفتيات ، وقاضياً كان عديم الشفقة على الذين يخلون بالآداب العامة عثر عليه يوماً مقتولاً في مكتبه لارتكابه حادثة مخالفة للشرف .

وفي الكتاب أمثلة كثيرة غير هذه الا انها لا تخلو من المبالغة والتعميم . فمن هذه المبالغات الأدبية قول المؤلف ان الطبيب الجراح ليس سوى قاتل أعد نفسه لمطالب المدنية ثم صعد بواعثه الوحشية الى ميول سامية . وكذلك المتهالك في حب النساء يصبح طبيباً مولداً . ان المغرم بالأقدام الصغيرة يصبح صانع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أحذية ، كما ان عاشق الأنامل الجميلة يختار لنفسه مهنة قص الأظافر ، واذا كان رساماً قصر عمله على رسم الأيدي ، وقد يصبح ايضاً صانع قفازات الى غير ذلك من الأمور التي تصدق على بعض الأشخاص ولا يجوز تعميمها واطلاقها على كل انسان . فالغريزة الجنسية عامل قوي مؤثر في سلوكنا ، الا انها لا تنفرد وحدها بالتأثير .

وقد نقل الأستاذ سامح الخالدي هذا الكتاب الى اللغة العربية بأسلوب واضح وشرح بعض رموزه شرحاً مقتضباً ثم صدره بمقدمة وافية في التحليل النفسي . ولكن أسلوبه في الترجمة لا يخلو في بعض الأحيان من التردد ، وشرحه المقتضب لا يخلو من التكرار .